

ANCORA IMPARO



البصيرة

يونية ١٩٢٩ اعرف نفسك بنفسك : فيتاغورس العدد ٢٢

حول الاحقاد والايمان

رد على كتاب مفتوح إلى محرر العصور

نشرنا في عصور مايو الماضي كتاباً مفتوحاً أرسل به إلينا القس اسكندر حداد من بيت جالا في فلسطين . وكان الذي حفزه إلى أن يرسل إلينا بهذا الكتاب المفتوح مقال نشر في عدد مارس من العصور تحت عنوان الكتب المقدسة في الميزان ، لخصنا فيه آراء شارلس سميث رئيس جمعية نشر الاحقاد بأمریکا .

ومن أغرب الأمر أنك إذا اطلعت على كتاب حضرة القس المحترم تجده يوجه الكلام إلينا من صيغة السؤال ثم يردف السؤال بسؤال آخر ، فتصبح الفقرات لواحداً سلسلة أسئلة متتالية فيها من روح الكشكشة ما فيها . فكأنه قاض من قضاة محاكم التفتيش يسأل عموساً : أين كنت لما حالفت الشيطان ؟ وكيف حالفته ، وأين التقيته لأول مرة ، وعلى أي شيء تحالفت ؟ فيجيبه المسكين كنت راكباً على كبش أسود ذى قرون ملتوية وفرو كبير يرمح بي في الوادي ، وعند المتعطف لقيت الشيطان خالفته على أن نكون صديقين مدى الحياة . — ومن هناك يساق المسكين إلى القتل من غير أن تراق

نقطة من دمه — ومعنى هذا أنه يحرق حياً . وعلى هذه الصورة قتل برونو وهيس وألوف غيرها، منهم الفلاسفة العظام ومنهم الموسوسون والمرضى والموسسات والمرضىات تحت عنوان الدفاع عن الدين .
واليوم يحاول القس حداد أن يدافع عن الدين ، ولكن بنفس الروح مع اختلاف في الوسائل وتباين في مدى السلطة والحقوق .

العصور مجلة إنتقادية في الأدب والعلم والسياسة . فلماذا تدخل في الدين ؟ وماذا يعني القس حداد أن يكون للمجلة جولة في إبحاث حرة تناول الدين في طرف من أطرافها ، أو أن تكون مجلة ملحدة لا تؤمن بشيء ما مطلقاً ؟ وإني لست أدري أهذه غيرة من القس حداد على الدين ، أم على العصور . ولكن الحقيقة أنها روح التعصب القديمة تظهر في هذا العصر ولكن على يد القس حداد والحمد لله

ثم أرجع إلى ما يقول القس حداد : كائن الواجب على المجلة أن لا تعرض إلا لنقد الكتب العلمية والأدبية ولكن ليس من حقها أن تعرض لكتب دينية مثبتة لدى ذويها منذ مئات القرون بالإجماع بوهانن عرضنا لنقد هذه الكتب فإذا يريد القس حداد أن يفعل ؟ وماذا في استطاعته أن يفعل ؟ ولكن القس حداد هو المتكلم لا كريدنا لا من كراذلة حاكم التفثيش ولا رجلا من رجال مجمع الفهرست ، فالحمد لله مرة أخرى .

ثم هو يأخذ علينا أننا نشرنا ذلك المقال من غير أن نعلق عليه لا إثباتا ولا رفضا ، فكيف يحق لنا ذلك في مذهب القس حداد ؟ لقد نشرنا هذا المقال من غير أن نعلق عليه ويمكننا أن نعيد نشره مرة أخرى من غير أن نعلق عليه أيضاً بل وفي استطاعتنا أن نترجم كل كتب جمعية نشر الاتحاد الأمريكية ونوزعها باسمنا وتحت أعين القس حداد ومن هم على شاكلته ، ومن هم على أكثر من شاكلته ، ليفعل القس حداد بعد ذلك ما يشاء .

ثم يقول بأن نشرنا لذلك المقال — من غير تعليق يعارضه — دليل على أننا من أنصار إلحاد شرلس سميث وأتباعه مثل . فلنرض جدلاً أن هذا هو الواقع فإذا يعنك أو يعنى النظام الاجتماعى أو يعنى النظام الكونى أن يكون محرر العصور ملحداً أو مؤمناً ؟ هل وكلت بالجنة منذ اليوم فتريد أن تحصى الملحدون لتحول بينهم وبينها يوم

الميزان أم أنك احتلت مركز الديان يوم القيامة فنصبت لنا فوق الأرض ميزاناً
يزن الحسنات ويزن السيئات؟ وافرض ياسيدى القس أنى جابهتك بالحادى فأى شىء
فى استطاعتك أن تفعل؟ أكثر مافى استطاعتك أن تفعل هو
أن تنشر على الملا الذين يستمعون لك ان محرر العصور ملحد. أفى استطاعتك أن
تفعل أكثر من هذا؟ وإذا لم يكن فى استطاعتك أن تفعل أكثر من هذا الأمر
الصغير، أفلا توافقنى على أن اهتمامك بهذا الأمر الصغير صغيرة لم يكن من اللائق
أن تصدم من رجل توجه لله فصار قساً يهذى الناس الى مكارم الاخلاق؟

سيدى القس المحترم. لقد اعترفت بأن اليهود والنصارى والمسلمين يعتقدون بأن
الله هو الآله الحق الوحيد وأن لا آله سواه. وان الكتب المقدسة هى التوراة
والانجيل والقرآن، وإن الانجيل يشهد للتوراة ويؤيدها، وإن القرآن يشهد للتوراة
والانجيل بأنهما انزلا من الله نوراً وهدى للعالمين. اعترفت بكل هذا. فهل يحق لى
بصفى مسلماً أن ادعوك الى ترك النصرانية وأن تدين بالاسلام، مادام اعتقادنا ثابتاً
فى ان الكتب الثلاث من عند الله، وما دام ما هو من عند الله لا يفضل بعضه على
بعض؟ هل يصح لى هذا، وهل يصح لى أن أسألك لماذا— مادمت قد اعترفت للقرآن—
لاتدين دينه، ولماذا لا تسلم وتؤمن بمحمد وكتاب محمد؟ لاجرم انى أكون من
من أبعد الناس عن الأدب المرضى والموعظة الحسنة. اتعرف لماذا ياسيدى القس
المبجل؟ لانتك ستقول لى إن كتابى وحده هو الحق. اما كتابك فنحول اخترعه محمد!
هل تستطيع أن تقول غير هذا يائفاة القس؟ انى اعرف انك لا تستطيع، وعلى هذا
يكون تظاھر كبنصرة القرآن اليوم كنظاھر النصارى فى القرون الوسطى بنصرة مبدأ
العضمة البابوية فى الوقت الذى عجزوا فيه عن ان يعصموا جسد أحد البابوات أن
يرعاه القمل والھوام الأخرى. عصمة عن الخطأ وتسليم بل واستسلام للھوام والنويات.
هذا عندى أحسن ما يشبه به دفاعك عن القرآن.

بعد هذا نستطيع أن نخاطب حضرة القس المحترم خطاب الند للند مادامنا قدأنا
سلطة التفقيش وما دما قد عرفنا مدى السلطة التى تمتد اليها يده.

عن « كانت ، هـ وهى غاية ما يمكن ان يصل اليه التفكير المستقيم ليكون تمهيداً للكلام فى مثل هذا البحث قال :

« يمكن أن نصف هذا العصر بأنه عصر النقد . النقد الذى اضطر كل شىء الى الخضوع لسلطانه . فالدين على عرش القداسة ، والقانون على عرش العظمة ، قد حاول كلاهما مرات ان يفلتا من الخضوع لهذه الضرورة . غير أنهما بما يحاولان فى هذا الشأن إنما يقيمان فى الاذهان شكاً فيما يعضدهما من الاسس والقواعد ، كما انهما يعدمان بهذا كل ما يحجو العقل غيرهما به من الاشياء التى اثبتت قدرتها على الثبات أمام البحث الحر . »

حقيقة ان حرية الفكر والبحث لا تتفق مع روح الدين . ولكن اذا كانت حرية البحث وحرية الفكر ضرورة من الضرورات التى لا يمكن أن تقوم المدنية الانسانية الا عليها ، وان لاحضاره بدونها ، وانها دعامة أولى من الدعائم التى تستند اليها العلوم وضروب المعرفة ، فايها يجب أن يخضع للآخر ؟ انخضع حرية الفكر للدين ام نخضع الدين لحرية الفكر ؟ اما انا فلا أتردد مطلقاً أن اعلن — واعتقد بعد اعلانى هذا انى مسلم رغم محاكمة القس حداد — انى أخضع الدين لحرية الفكر فالحرية أولاً والدين ثانياً

على انى أسأل القس حداد هل هو يعتقد أن الدين غاية ام وسيلة ؟ اما انا فاعتقد ان الدين وسيلة وليس غاية فى ذاته . الدين وسيلة توصلنا الى غايات أهمها معرفة الله . اذن فكل وسيلة توصلنا الى معرفة الله وتخلص أرواحنا من جحيم الشك والريبة ، يمكن أن نعتبر ديناً . فاذا كانت حرية الفكر توصلنا الى هذه الغاية فهى ولا شك دين جديد يمكن أن يكون لدى الآخذين به أهدى سبيلاً وأقوم قبلاً .

قد يقول القس حداد ومن هم على شاكلته : إن حرية الفكر قد تسوق الى الالحاد ، وقد تسوق الى انكار وجود الله ! ونحن نوافق على أن حرية الفكر كما تسوق الى الايمان وقد تسوق الى الالحاد والانكار . ولكن هل حى الدين الناس من الالحاد ؟ لم يحسم من الالحاد مطلقاً . بل انك لتقع على حقائق تاريخية كثيرة تثبت لدينا أن ملحدين ظهوروا فى أخص عصور الايمان فكانوا لجهلهم وعدم تبصرهم أشد رية من أحرار الفكر ، والملاحدة منهم على الأخص ! فاذا كان الدين فى أخص عصوره لم يحسم الفكر الانسانى عن الشك ، فأبى شىء يرجع حرية الفكر فى هذه الناحية ؟

وإذا كانت مهمة الدين الحقيقية عند أهل اللاهوت تنحصر في معرفة الله معرفة مطمئن اليها النفس الإنسانية لتعيش هادئة وادعة منصرفة الى الخير العام ، فما قول القس حداد في أن الملحد الذي يلحدس عن إيمان وعقيدة — ينال من هدوء النفس ما ينال المؤمن المسلم بكل شيء . تسليم إيمان ؟ وإذا كان هذا هو الواقع ، وإذا كانت الأديان قد أنزلت لخير الإنسان وحده ليصل الى هذه الغاية التي يسهل بها جوته :

- Peace and tranquility of mind

وانها لم تنزل لاحتياج الله اليها في شأن من الشؤون سوى اطمئنان النفس الإنسانية ، على ما أعتقد ، فلماذا لا يكون الإلحاد بدوره ديناً كمثل الأديان ، ولماذا يستحق الملحدون احتقار القس حداد وأمثاله — وقد يجوز أن يكونوا أكثر اطمئناناً وسعادة بالمخادهم من القس حداد بأيمانه ؟

على أنى أعتقد اعتقاداً جازماً بأن الملحد المطمئن إلى الحاد أعود بانفع على الإنسانية من المؤمن الذي لم يعرف من الإيمان إلا التعصب لمذهب أو صورة من صور الاعتقاد . والسبب في ذلك ظاهر . فان الملحد يعرف — في أول ما يعرفه من الأشياء — أن الناس أحرار في أن يعتقدوا ما شاءوا مادام اعتقادهم يؤدي بهم الى الغاية التي ينشدها المؤمنون من أديانهم . أما المؤمنون من أمثال القس حداد فلا يؤمنون إلا بطريق واحد يؤدي الى الخلاص . فإذا كان كاثوليكياً اعتقد بأن الكنيسة هي الطريق الاوحد الى الله . وإذا كان بروتستانياً اعتقد بأن البروتستانتية هي الطريق وإذا كان ربانياً قال بمذهبه وإذا كان من القرائين اعتقد اعتقاد الرباني في أن مذهبه أحق بالوجود وأنه طريق الخلاص . وإذا كان مسلماً (مثلي) اعتقد بأن الاسلام أحق بالوجود من النصرانية واليهودية ، بل أحق بالوجود من كل الأديان — على اختلاف صورها — بل قد يجوز أن اعتقد أن الاعتزال اقرب الى الله من السنية ، اذا كنت معتزلاً . وهكذا يصبح الإنسان عبداً للمذاهب ، فيتركز الفكر حول صورة بعينها ، فينشأ اعتقاد ثابت . هو بمثابة الفكرة الثابتة عند بعض المجانين ، تدور من حولها كل الأفكار ، وهي مركز الدائرة وقطب الرمح .

هذا المظهر الغريب هو الذي يجعلني أؤمن بصلاحيه الملحد الحر الفكر اجتماعياً إيماناً لا يوازيه إلا الشكى في صلاحية المؤمن المتعصب ليكون عضواً في خير المجتمع البشري .

كل هذا لنظهر للقس حداد أنه مخطيء في حملته المصوبة في هذا القالب اللاهوتي الغرب الذي صبه في سؤاله الذي نشرناه في العدد الماضي من العصور . على أي أستطيع أن أناقش القس حدادا في أشياء أكثر من هذه لحة بالاديان لا ثبت له أن الدين لا ينافي حرية الفكر وأن حرية الفكر قد تكون أكثر عائدة بالنفع على الاديان من تعصب ذميم يحاول أهله أن يخضعوا الفكر الانساني - الذي هو الطريق الوحيد لمعرفة الله - لاساطير واقوال ما أنزل الله بها من سلطان

والآن ننقل الى أسئلة القس حداد فنجيب عليها جواباً صريحاً لا تراعي فيه أية ناحية من نواحي الاعتقاد ، بل ولا تراعي فيه شخصاً من الاشخاص سواء اكان قساً أم كرديناً لا .

السؤال الاول .

(١) هل يكون حكم صحيح شرعاً بناء على ادعاء أحد الخصمين ولا سيما اذا كان هذا المدعى ملجداً ؟

الجواب

يمكننا أن نوجه هذا السؤال نفسه لحضرة القس المحترم فنقول له . هل يكون حكم صحيح عقلاً (لا شرعاً) بناء على ادعاء أحد الخصمين ولا سيما اذا كان هذا المدعى مؤمناً ؟ غير اني لا اقتصر في الاجابة على هذا لتلا يتهمني حضرة القس بأن افر من الاجابة على اسئلته .

أما حكمي على للشرع فلا ادعى اني من أهله لاسيما وأن صحة الحكم الشرعي له قواعد واركان ليست ملأ بها . أما دعوى أحد الخصمين فمن الجائز أن تكون صحيحة ولو صدرت عن ملحد ، كما يجوز أن تكون غير صحيحة ولو صدرت عن مؤمن . ذلك أن صحة الدعوى لا تثبت الا بقيام الاركان المنطقية والعقلية التي تدعى المقدمات . وصحة النتائج موقوفة على صحة المقدمات . فلماذا تكون كل المقدمات التي يأتي بها المؤمنون صحيحة ولو كانت خطأ ، ولماذا تكون كل المقدمات التي يبني عليها الملحدون نتائجهم خطأ ولو كانت صحيحة ؟ إذن فالحكم على الشيء بالصحة أو الخطأ راجع إلى المقدمات التي يقوم عليها والمشاهدات الطبيعية التي تؤيده . أما ادعاء أحد الخصمين بأنه على حق فزعة ينزع اليها الدين وأهل الدين ، بل هي من المقومات التي تقوم عليها المذاهب الدينية . في حين أن أحرار الفكر لا يكرهون شيئاً بقدر ما يكرهون هذه الزعة في الدين وغير الدين .

السؤال الثاني

(٢) هل تكون ثقة في قلوب الناس بكلام ملحد لاديني وشهادته . وهل يركن اليه وبه في المعاملة والاقوال .

الجواب :

الشرط الاول من هذا السؤال تدخل الاجابة عليه في جوابنا على السؤال الاول . أما قلوب الناس فلا يمكن الحكم عليها . ولم يدع الدخول إلى قلوب الناس ومنح الفقرانات ويبيع دم المسيح لمحو الخطيئات الا أهل الكسل . وحاشاى أن ادعى الوصول إلى ، ماوصلوا اليه من علم وإيمان . أما الركون إلى ملحد في المعاملة والاقوال ، فآلة فيها نظر . واني لا اعتقد أن من الملحد من هم أكثر أمانة وأصح قولاً من كثير من المتدينين . ولست أدري ماهي علاقة الاخلاق بالدين أو علاقة الصفات النفسية بالدين . فان الدين يدعو إلى مكرم الاخلاق حقيقة . ولكنه يعجز عن أن يحل نقلاً رذلة بالفضائل اذا لم تكن مستعدة لها . ونحن نعلم أن من أهل الوثنية من هم أرقى خلقاً من كثير من أهل التوحيد . فهل معنى هذا أن الوثنية وأهلها أقرب إلى الله من غيرها من الأديان ؟

السؤال الثالث

(٣) أى أنفع للناس الدين أم الالحاد ؟ وأى ضرر من الدين للمجتمع البشرى مهما كان وأى نفع لهم من الالحاد والكفر ؟

الجواب :

الاجابة على هذا السؤال تدخلنا في مسائل خلافية لا معنى للخوض فيها هنا . أما تقع الدين للمجتمع فتأب بالنظريات الاجتماعية التي يقول بها حزب « بنامين كيد » ومن ينحون في البحث نحوه . على أنهم لا يعرفون من الدين ما يعرف القس حداد بل يعرفون منه « نزع الانسان إلى الاعتقاد » . فطبيعة الاعتقاد في الانسان ضرورة اجتماعية . أما أنها تشكل في صورة فتصبح ديناً ، فان الحكم على النفع أو الضرر منه أمر مشكوك فيه كثيراً . وبجانب حزب « كيد » حزب يعتقد أن صور الاديان برمتها لم تتج إلا خراباً ودماراً وهدماً في الانفس والتمرات . أما التاريخ الاجتماعي فنه ما يؤيد قول الاولين ، ومنه ما يؤيد قول الآخرين . وعلى كلتا الحالتين فان تاريخ الكنيسة يؤيد رأي المناهدين « لكيد » بما لا يترك مجالاً لريب أو ميداناً لمناقشة أو جدال .

السؤال الرابع

(٤) اذا أهمل الدين وطرح جانباً فاذاً يقوم مقامه من الهيئات الاجتماعية ؟
الجواب :

الواقع أن الدين علاقه بين الشخص (الفرد) وبين الله ، ولا شأن له بالمجتمع مطلقاً والذين يقولون بأن للدين أثر في المجتمع واهمون فان المجتمع اليوم قائم على أمرين الأول - القوانين الوضعية . والثاني - المعاهد والنظامات الموروثة التي ليس الدين إلا مظهرأ من مظاهرها . فمدخل الدين إذن في النظام الاجتماعي . ولكي نزيد هذا القول بالمشاهدة ندعو القس حداداً أن يذهب الى جزائر تاهيتي أو جزائر أرض النار أو بجاهل أستراليا ليرى بعيني رأسه أقواماً لا دين لهم على وجه التقريب ، ومع كل هذا فإن لهم من القوانين (المعادات) ما يقوم عليه نظامهم الاجتماعي . وكن على يقين ياسيدى القس بأنه اذا أهمل الدين فإنه لا يتغير من النظام الاجتماعي شيء مطلقاً . ولا أقصد بالدين إلا الصور اللاهوتية التي يقدسها أهل المذاهب أكثر مما يقدسون العقل أو الصفات النفسية ، وليس الاعتقاد الا صفة منها .

السؤال الخامس

(٥) اذا صار الناس ملحدين أو طبعيين فعلى أية شرائع او نظامات تحفظ حقوق الافراد ويسود الامن والسلام في العالم الانساني
الجواب .

ان وضع هذا السؤال في ذاته غير مستقيم فان صيروره الناس جميعاً ملحدين فرض كفر فرض صيرورتهم كلهم مؤمنين . وفلا عس أن السؤال غير مستقيم وضعاً فقيه خطأ . وخطؤه في الدعوى بأن الأديان شرائع يسير عليها الناس . والحقيقة أن للدين نظام من النظامات الاجتماعية اكتسب صفة القداسة بنسبته إلى قوى تسند بما فوق العقل لا أكثر ولا أقل . أما الشرائع التي نزلت بها الإديان فليست جديدة بل هي شرائع مستمدة من العرف الذي جرت عليه الأقدام التي ظهرت فيها الأديان .

أما السؤال السادس فالاجابة عليه يمكن استخلاصها من مجموع ما أتيناه به من الاجوبة السابقة . هذا ما نراه في كتاب القس حداد نصارحه به وهو رأى نشرناه أكثر من مرة